

مستويات النقد في العصر الجاهلي

المدرس الدكتور

خالد صكبان حسن

جامعة البصرة / مركز دراسات البصرة والخليج العربي

المخلص:-

يرى بعض نقاد ومؤرخي الأدب العربي أن العصور العربية الأولى تخلو من النقد ، وقدموا أدلة كثيرة على قولهم هذا ، وإن انصف بعضهم فقصدوا النقد المنهجي بقوانينه التحليلية الموضوعية ، وقواعده العلمية .

نحاول في بحثنا هذا تلمس ظواهر نقدية في تراثنا الأدبي القديم ، وتحديدًا في أول العصور الأدبية التي اصطلح النقاد العرب على تسميتها ، واستندوا إليها في تقسيمهم لأدبنا العربي تاريخيًا إلى عصوره المعروفة .

*Literary Criticism in the Pre-Islamic Era**Dr.Khaled Sikban Hassan**Basra University/ Centre for Basra and Gulf Studies***Abstract:**

Some scholars deny the existence of Arabic literary criticism in the early periods. This might be true in terms of theories, methods and approaches. In this paper we try to trace aspects of literary criticism in the early periods of Islamic literature.

المقدمة

يعدّ موضوع العلاقة بين الأدب والنقد ، أو بين الأديب والناقد ، أحد أكثر المواضيع دراسة وتمحيصا ومعالجة ، ذلك أن العلاقة الجدلية التي تربط بين الطرفين تتطلب الكثير من الأبحاث والدراسات النظرية والتطبيقية ، ناهيك عن أن وجود أحدهما شرط لوجود الآخر، فلا وجود للنقد بدون وجود نص أدبي ، كما لا يمكن أن نتخيل وجود نصوص أدبية إبداعية من دون قلم الناقد ، فهذا أمر بات من البديهيات بمعزل عن مستوى النص الأدبي وكذلك بمعزل عن مستوى النقد المواكب له.

إن النقد هو صنو الأدب ، من حيث الاشتقاق منه والتسلط عليه ، ومن حيث كونهما فنّين يهتمان بدنيا الذوق والجمال والتأثر والانفعال ، متلازمان ولا بدّ ، لا ينفك أحدهما عن الآخر.. بل يسيران معا في تفاعل وتكامل تام ، كالرجل وظله .

وقد يرى البعض أن الأدب قد نال حظه الوافر من الدراسة والتحليل على مر العصور، وعلى العكس من ذلك لم يحض النقد بمثل ذلك الاهتمام إلاّ على فترات بعيدة عن واقع العمل الادبي ، وبعد أن نبغ عدد من الذين يمتلكون شيئا من الصناعة العقلية والاجتهادات الفكرية التي يحتاجها من يشتغل بالنقد . فالنقد حالة عقلية منطقية في كثير من أوجهها وظروفها .

إلا اننا لا يمكن ان نسلم بمثل هذه الآراء كبديهية قارة ، ذلك أن النقد يولد منذ اللحظة التي يبدع فيها الأديب نصه الأدبي ، وما الرغبة التي يضمها منتج النص ، ويتجه بسببها إلى عملية تنقيح وتهذيب النص ، من أجل أن يحقق نصه الأدبي الشهرة والصيت عند المتلقين ، إلا عملية نقدية ذاتية لما يبدعه من عمل أدبي ؛ فالمبدع هو أول ناقد لعمله الادبي ، يهذبه وينقحه ليقدمه للناس بأجمل صورة .

لقد نشأ النقد مع الأدب أو بعده بقليل ، فهو ينشأ معه لأن منتج النص الأدبي نفسه يمكن أن يكون ناقدا لعمله وهو ينشئ النص فيقومه ويعدّله ويستبدل كلمة بأخرى ، ويقدم بيتا على آخر أو فقرة على أخرى ، ولنا في تاريخ الشعر العربي ما يؤيد هذا ، إذ

يذكر الجاحظ أن هنالك من الشعراء من يبقي القصيدة حولا كاملا يعود إليها بين الحين والآخر معدّلا ومغيّرا^(١) ، وهو بهذا العمل قد مارس عملا نقديا تجاه نصه الأدبي .
 أمّا النقد الذي ينشأ بعد الأدب فيكون بعد أن يفرغ الأديب من كتابة نصه الأدبي وإذاعته بين الناس ، فيكون لهؤلاء المتلقين موقف يتباين قبولا أو رفضا ، ويبرز من بينهم من يستطيع أن يكشف عن أسباب الإعجاب أو الاستهجان ، مستندا في ذلك إلى قراءات واسعة للنصوص الأدبية ، وذوق سليم ، وثقافة عميقة في علوم لها صلة وثيقة بالأدب ، مثل علوم اللغة وعلم الجمال وعلم النفس وعلم الاجتماع .
 وانطلاقا مما تقدم ، نحاول في بحثنا هذا تلمس ظواهر نقدية في تراثنا الأدبي القديم ، وتحديدًا في أول العصور الأدبية التي اصطلح النقاد العرب على تسميتها ، واستندوا إليها في تقسيمهم لأدبنا العربي تاريخيا إلى عصوره المعروفة .

النقد الأدبي في العصر الجاهلي

زعم البعض من نقاد ومؤرخي الأدب العربي أن العصور العربية الأولى تخلو من النقد، وقدموا أدلة كثيرة على قولهم هذا ، وإن انصف بعضهم فقصدوا النقد المنهجي بقوانينه التحليلية الموضوعية ، وقواعده العلمية^(٢) .
 وقد انقسم مؤرخو الأدب إلى فريقين ، الأول يرى أن النقد العربي بدأ في عصر ما قبل الإسلام ، وفريق آخر يرى ان النقد المنهجي ، على نحو خاص ، بدأ في القرن الثاني للهجرة^(٣) .

هذا الإنقسام يعود في الأساس إلى رؤيتهم للعملية النقدية ، ففي الوقت الذي يرى فيه الفريق الأول أن الإنسان ناقد بطبعه ، ومتذوق بفطرته ، يطالب دائما بالأحسن والأجمل والأجود والأمثل في شؤون حياته كلّها ، ولن يشدّ الشعر والأدب عن هذا المبدأ ، ذلك أن قراءة الشعر وسماعه تقتضي تذوقه ونقده ولا سيما إذا حدث ذلك من عارف بالشعر كالشاعر نفسه أو راويته ، وما أكثرهم في عصر الجاهلية^(٤) .

ويرى الفريق الثاني أن مثل هذه الأحكام ليست من النقد في شيء ، وأن النقد الصحيح هو الذي يستند إلى قواعد وأصول ومنهج ، وهذا الأمر لم يحصل إلا في القرن الثاني للهجرة^(٥).

وعلى الرغم من الاعتقاد بأن النقد الأدبي قبل الإسلام كان يرتكز أساسا على الذوق الفطري ، ويخلو في أغلب الأحيان من التعليل والتفسير ، إلا أنه يمكن القول أن من يطالب بالنقد المنهجي العلمي بقوانينه ومناهجه المعروفة أن تتواجد في العصر الجاهلي فإنه بذلك يحاول تسليط مصطلحات حديثة على تراث فكري قديم ، الأمر الذي يؤدي إلى محاكمة فترة زمنية قديمة تاريخيا بأعراف معاصرة ، وليس هذا من البحث العلمي المنهجي ولا من الدراسة الموضوعية الجادة في شيء ؛ لذا يتطلب الأمر في مثل هذه الدراسات أن نبحث في خصائص ومميزات النقد الأدبي في عصر الجاهلية في إطاره الزمني والمكاني ، وهو ما نحاول البحث عنه في هذه الدراسة من خلال البحث في مستويات النقد في العصر الجاهلي ومن ثم الوصول إلى خصائصه ، وسماته ، ومميزاته .

النقد الذاتي

يتحدث الجاحظ عما أسماه بـ (عبيد الشعر) فيقول : ((ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا ، وزمنا طويلا ، يردد فيها نظره ، ويجيل فيها عقله ، ويقلب فيها رأيه ، اتهاما لعقله ، وتتبعها على نفسه ، فيجعل عقله ، زماما على رأيه ، ورأيه عيارا على شعره ، إشفاقا على أدبه ، وإحرازا لما خوّله الله تعالى من نعمته . وكانوا يسمون تلك القصائد : الحوليات ، والمقلّدات ، والمنقّحات ، والمحكمات ، ليصير قائلها فحلا خنديدا ، وشاعرا مفلقا))^(٦).

هذه العملية التي عرفت عند القدماء بـ (التنقيح)^(٧) ما هي إلا عملية نقدية ، إذ يعيد الشاعر النظر فيما يكتب ومرات ومرات حتى يستقر على الشكل النهائي الذي يريد لنصه أن يكون عليه .

وفي أدبنا العربي القديم كانت عملية التنقيح تسائر عمل القصيدة ، فقد ذكرت كتب الأدب نصبا شعريا يتحدث عن عملية التخيّر والعزل التي يقوم بها الشاعر ليخرج القصيدة بصورة متميزة^(٨) ، فيقول :

أذود القوافي عنيّ زيادا زياد غلام جرى جراد
فلما كثرن وعينيه تخيّر منهن شتّى جيا

فالشاعر يردد النظر في عمله لينقح ، ذلك أنه حين يكون مستغرق الفكر في العمل قد لا يكون منتبها لبعض الهنات التي ترافق نصه الشعري ، فيعمد إلى مراجعة ما كتبه أكثر من مرة ليحذف ما ينبغي حذفه ، ويصلح ما يتعين إصلاحه ، ويكشف عما يشكل عليه من غريبه وإعرايه ، ويحرر ما لم يتحرر من معانيه وألفاظه ، ليصل إلى غايته المنشودة في إخراج نص شعري للمتلقين يقترب من الكمال الفني .

إن الشاعر يخضع منجزه الشعري لهذه العملية النقدية ليثبت ذاته أمام الآخرين ، وهي حالة من التحدي تواجه منشئ النص أمام المتلقي ، ولا سيما إذا كان هذا المتلقي هو ممدوح الشاعر والمرتجى منه العطاء ونيل الصلات والجوائز .

ومما لا شك فيه أن غاية كلّ شاعر أن يصل بفنه الشعري إلى أقصى ما يستطيع من التجويد والإتقان ، ولكن هذه الغاية دونها عمل كثير ، على الشاعر أن ينجزه على أكمل صورة حتى يصل تلك الغاية المنشودة .

فالشاعر حين يقوم بعملية تجميل نصّه الشعري ، يجب أن يختار مواطن محددة فيه تمثل حالات حاسمة تتطلب وقفة متأنية ، بحيث يعطي كل صورة جمالية حقها من الاستيفاء الفني كي يتحقق الغرض منها ، وهو التأثير في المتلقي ، أو مضاعفة حسنها في العيان أو المشاهدة^(٩) .

ويمكن القول أن عملية صوغ الشعر العربي القديم على الرغم من وصفها بالعفوية إلا أنها لم تخل من إعداد نفسي وتفكير ذهني ينهض بهما الشاعر قبل الصياغة ، وهكذا يعمد الشاعر إلى تهيئة قالب الذي يحتوي كلّ ما أراد وقصد إليه ؛ هذا الإعداد النفسي

والتفكير الذهني الذي يتبعه الشاعر بقدر من النظر والتدبير ما كان ليحدث لو لم تكن هنالك أعراف وتقاليد شعرية تفرض على الشاعر أن يلتزم بها .

ونحن عندما ننظر في مبلغ الجودة التي وصلتها القصيدة الجاهلية ونقارن ذلك بـ (الحداء) الذي يظن أنه نواة الشعر العربي نعرف مقدار التهذيب والتنقيح الذي رافق عمل الشعراء حتى انتهى بهم إلى هذا الاتقان الشعري فيما وصلنا من نماذج الشعر الجاهلي ، ذلك أن التثقيف والتنقيح تصور إدراك الشاعر لقيمة الفن الشعري وما ينبغي أن يكون عليه من جمال ونضج.

ومن هنا يمكن لنا ان نستنتج أن العرب في تلك المرحلة كانوا على علم بدرجة معينة بالجمال الشعري ومقاييسه الفنية ، ومعطياته العامة ، ويؤكد ذلك ما ذكرناه من أن بعض الشعراء الكبار كزهير مثلاً كان ينقح شعره ، فلا يخرج قصائده إلا بعد حول كامل يقسمه على مراحل ، وهذه القصائد سميت بـ(الحواليات) ، ولا يكون التنقيح إلا إذا أدرك الشاعر بعض النواحي التي يرتكن إليها في عمله هذا .

وعناية الشاعر الجاهلي بشعره ، بالنظر فيه وتقويمه وتثقيفه منحى نقدي جاهلي ، سار على نهجه كثير من الشعراء الذين تتابعوا عبر العصور .

الشعراء النقاد

تروي لنا كتب التراث الأدبي العربي أخباراً عن آراء وأحكام نقدية صدرت عن شعراء جاهليين في منتدياتهم التي كانت تجمعهم في مواسم معينة ، ولعل سوق عكاظ أشهرها لما كان يجري فيها من مباراة شعرية بين شعراء العرب آنذاك واجتماع شعراء القبائل لعرض ما تجود به قرائم الشعرية والمنافسة في إثبات الرياسة والفحولة الشعرية ، الأمر الذي يؤدي إلى ردات الفعل من قمم شعرية لها مكانتها عن الجميع .

كانت ردات الفعل هذه في حقيقة الأمر هي مظاهر نقدية صدرت عن شعراء لهم الخبرة والمقدرة الفنية على إصدار الأحكام ، ذلك أن الشاعر أقدر من غيره على فهم الصنعة الشعرية وعلى إدراك أسرار القبح أو الجمال ؛ فإذا صدر النقد عن الشاعر كان أقرب إلى القبول لكونه يعرف ما يعتري الشعر من ضعف وقوة ، ومن علل أخرى فنية أو غير فنية،

فالشاعر أو الأديب ((هما أقرب الناس إلى نتاجهما ، وإن الناقد مهما كان موفقا ، لا يعرف عنهما كما يعرفان عن انفسهما ، لأنه لم تصادفه التجربة التي مرّ بها حين صاغا أدبيهما ، ولم يعرف شعورهما في تلك اللحظات الناعمة أو القاسية ، التي اختبرها حين سجّلا في عباراتهما صدى ما يختلج بين جوانحهما ، في تلك العبارات التي نقرأها))^(١٠) .

وربما يمكننا أن نعدّ النابغة الذبياني من أبرز الشعراء الذين كان لهم النصيب الوافر من الروايات التي وصلتنا عما كان يدور في الساحة الأدبية آنذاك من محاكمات شعرية وآراء نقدية تتعلق بماخذ فنية أو غير فنية على الشعراء في ذلك العصر.

فقد تناولت أكثر المصادر القديمة قصة القبة الحمراء التي كانت تضرب للنابغة في سوق عكاظ ، ومن ذلك ما يروى عن حكمه للأعشى ميمون بن قيس ، حينما أنشده قصيدته التي مطلعها :

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤال وما ترد سؤالي

إذ فضله على كل من حسان بن ثابت في قصيدته :

لنا الجففات الغرّيلمعّ بالضحي وأسيفنا يقطرّ من نجدة دما

ولدنا بني العنقاء وابيّ محرق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنا

وعلى الخنساء في قصيدتها في رثاء أخيها صخر التي تقول فيها :

قذى بعينيك أو بالعين عوار أم أقفرت مذ خلت من أهلها الدار

وكان تفضيل النابغة يتجلى في قوله لحسان : ((أنت شاعر ، ولكنك أقللت جفانك وأسيفك ، وفخرت بمن ولدت ، ولم تفخر بمن أنجبك))^(١١) . وخاطب الخنساء بقوله :

((والله لولا أن سبقك أبو بصير ، أنشدني أنفا ، لقلت أنك أشعر الجن والأنس))^(١٢) .

ويروي أبو الفرج في الأغاني أن النابغة الذبياني أقبل يريد سوق بني القينقاع ، فلحق به الربيع بن أبي الحقيق نازلا من أطمه^(١٣) فلما أشرفا على السوق سمعا ضجة ، وكانت سوقا عظيمة ، فحاصت بالنابغة ناقته فأنشأ يقول : ((كادت تهال من الأصوات راحلتي)) ، ثم قال للربيع : أجزيا ربيع ، فقال : ((والنفس منها إذا ما أوجسته خلق)) .

فقال النابغة : ما رأيت كالليوم شعرا قط. ثم قال : ((لو انهنهها بالسوط لاجتذبت)) ، فقال الربيع : ((مني الزمام واني راكب لبق)) فقال النابغة : أنت ياربيع أشعر الناس^(١٤). ومن المواقف النقدية الأخرى للنابغة ما حدث بينه وبين الشاعر أوس بن مغراء حين تهاجا ، إذ قال النابغة : اني وإياه لنبتدر بيتا أيّنا يسبق إليه غلب صاحبه ، فلما بلغه قول أوس :

لعمرك ما تبللا سراويل عامر من اللؤم ما دامت عليها جلودها

قال النابغة : ((هذا البيت الذي كنّا نبتدر إليه ، فغلب أوس عليه))^(١٥).

وشبيه بهذا النقد الذوقي ما قاله لبيد بن ربيعة عندما سئل عن أشعر الناس ، فقال : ((الملك الضليل ، ثم الغلام القتيل ، ثم أبو عقيل ويقصد نفسه))^(١٦). ومما ذكرته لنا المصادر من نقد الشعراء في العصر الجاهلي ، ما عابه طرفه بن العبد على المسيب بن علس ، فقد روي عن أبي عبيدة أنه قال : مرّ المسيب بن علس بمجلس بني قيس بن ثعلبة فاستنشدوه ، فأنشدهم :

ألا انعم صباحا أيها الربع واسلم نحبيك عن شحط وإن لم تكلم

فلما بلغ قوله :

وقد أتنامسى الهمّ عند ادكاره بناج عليه الصيعرية مكرم

فقال طرفة وهو صبي يلعب مع الصبيان : ((استنوق الجمل))^(١٧).

لقد أنكر طرفة الإستعمال الخاطئ للمسيب في وصف الجمل ، معتمدا على حسه اللغوي في تخطئة الشاعر الذي ابتعد عن الصواب في استعماله اللفظ ، إذ أدرك طرفة بفطرته أن كلمة (الصيعرية) وضعت للدلالة على تلك السمة في عنق الناقة ، فلما ابتعد بها الشاعر عن أصل وضعها ن غير سبب معقول .. فطن إلى ذلك بفطرته ، ونبه الشاعر إلى خطئه بهذه العبارة التي صارت مثلا .

هذا النقد الذي يستند إلى الذوق الفني ، ويخلو من التحليل والتعليل ، لا ينقصه الادراك الفطري في معاني الأبيات ، ولكن تنقصه الشمولية النقدية التي لا تقتصر على المعاني وأيها أنفع ، أو أشد وقعا على النفس لأن النقد أوسع من ذلك ، ولكن لا يمكن أن

نغفل هذا الحس النقدي لدى النابغة الذي ينطلق في أحكامه من تقاليد شعرية تربي عليها ، وكانت ماثلة أمامه في عصره . ولعل الحكم على الشعر من جهة والتنويه بمرتبة الشاعر ومكانته بين الشعراء من جهة أخرى ، كانا الميدانين اللذين جال فيهما النقد جولات خفيفة في العصر الجاهلي

وعلى الرغم من أن هذه الأحكام عمادها الاستعداد الفطري ، إلا أنها تنم عن خبرة أدبية كامنة في ذهن الشاعر الناقد تتصل بشعوره الطبيعي وعاطفته الطبيعية من جهة ، ومن جهة أخرى بردود أفعاله التلقائية للمؤثرات المختلفة .

نقد المتلقي

عرف العرب أنهم أهل بلاغة وفصاحة وبيان ، وكانوا يتذوقون الأدب بفطرتهم وسجيّتهم، وتحدّثنا مصادر الأدب حديثاً يكاد لا ينتهي عن مكانة الشعر عند العرب ، وعن منزلة هذا الفن فيهم ، وعظم أثره في حياتهم ، وهي جميعاً تمثل المنحى الخلقى النفعيّ ، وتصوّر الشعر نشاطاً حيويّاً فعّالاً ، وطاقة خيرة مؤثرة ، بل هو السلاح الإعلاميّ ، آنذاك ، في المجتمع العربيّ .

فالشاعر يحامي عن القبيلة ، ويدافع عنها بالقول المؤثر النفاذ ، فكأنه صحفي هذا الزمان ، أو رجل الإعلام في مواقعه المختلفة ، يمجد القبيلة ، ويدافع عن سياستها، ويشيد بمآثرها وأعمالها ، ويصوّر قوتها ، ويهاجم الخصوم المتطاولين عليها ، مشكلاً بذلك جهاز ردع ، يرهب العدو ، ويخيف الخصم .

قال أبو عمرو بن العلاء مصوراً فرط حاجة العرب إلى الشعر: ((الذي يقيد عليهم مآثرهم ، ويضخم شأنهم ، ويهول على عدوهم ومن غزاهم ، ويهيب من فرسانهم ، ويخوف من كثرة عددهم ، ويهاجم شاعر غيره فيراقب غيرهم))^(١٨) . وقد أثنى ابن سلام على لبيد فقال : ((كان في الجاهلية خير شاعر لقومه، يمدحهم، ويرثيهم، ويعدّ أيامهم ووقائعهم))^(١٩) .

وقال ابن قتيبة : ((وللعرب الشعر الذي أقامه الله تعالى مقام الكتاب لغيرها، وجعله لعلومها مستودعاً، ولآدابها حافظاً، ولأنسابها مقيداً، ولأخبارها ديواناً، لا يربث على الدهر، ولا يببىد على مر الزمان))^(٢٠).

أما ابن رشيقي فيذكر في كتابه (العمدة) نماذج من الشعر الذي قيل في الدفاع عن القبيلة ، والانتصار لها من الخصوم تحت عنوان (باب احتماء القبائل بشعرائها)^(٢١) . فقد كان الشاعر مسجلاً للمفاخر والمآثر ، ومؤرخ للفضائل والأمجاد ، والشعر عندئذٍ كالملحمة البطولية ، يدون تاريخ القبيلة ، ويتغنى بانتصاراتها، ويسجل الأحداث العظام لتكون معلماً وهادياً للأجيال القادمة ، يتعلمون منها المجد والشرف، ويرضعون لبان النخوة والمروءة .

لكل ما تقدم ، لم يكن متلقي الشعر في هذه المرحلة ممن يخونه الذوق أو الإحساس بما يسمعه من الشعر ، وكان الشاعر يدرك ذلك ويحسب له ألف حساب لأنه يتوقع أن ما يلقى من الشعر لن يمر مرور الكرام ، لان متلقيه يمتلك القدرة على التذوق والتمييز ، فقد ((يميز الشعر من لا يقوله كالبزاز يميز من الثياب ما لم ينسجه ، والصير في يخبر من الدنانير ما لم يسبكه ولا ضربه حتى إنه ليعرف مقدار ما فيه من الغش وغيره فينقص قيمته))^(٢٢) .

ومن شأن هذا الذوق أن يقيد الشعراء والأدباء فينشدوا فيه وفق ما تحبه وتطلبه الجماهير وهذا ما يدفعهم لتهديب شعرهم بما يساير هذا الذوق العام ((ولا نرتاب في أن من كانوا يستمعون إليه كانوا يستعيدون . في حضرته . ما ينشده مراراً ، وأنهم كانوا يطلبون منه المزيد ، ولا نرتاب أيضا في أنهم كانوا . إذا رحل . يتحدثون عنه وعن شعره ، فيتعصب بعضهم له ويتعصب بعضهم عليه مؤثرا شعراء قبيلته . وكذلك كان شأنهم في الأسواق حين يستمعون إلى ما ينشد الشعراء ، فيظهر فريق منهم إعجابا ، ويظهر فريق سخرية واستخفافا ، ولعل هذه هي أول صورة لتقدير الجماهير للأدب وتقويمه ، وبروزها في العصر الجاهلي يدل على رقي الذوق حينئذ ، وقد اندفع الشاعر يحاول إرضاء هذا الذوق وأن يقع منه موقع استحسان))^(٢٣) .

تحدثنا المصادر الأدبية أن الأعشى أنشد قيس بن معديكرب أحد أشرف اليمن شعرا يمدحه فيه ، فقال :

ونبتت قيسا ولم آته وقد زعموا ساد أهل اليمن

فعابه قيس لما شاب معناه ، ولم ينفعه اصلاحه البيت بقوله :

ونبتت قيسا ولم آته على نأيه أهل اليمن^(٢٤).

تخبرنا هذه الرواية عن الدقة التي كان يتحراها المتلقي العربي في فهم الألفاظ ، وفي استعمالها ، وفي ذلك دلالة على أن العربي شديد الحساسية في إدراك التلاؤم بين الكلمة وما وضعت له ، فإذا ابتعدت عن معناها ، وانحرفت عن دلالتها عدّ ذلك عيبا . فقيس استطاع أن يتنبه إلى خطأ الأعشى حين ذهب إلى أن سيادة قيس على أهل اليمن كانت زعما لا حقيقة ، و (زعموا) كما يقولون مطية الكذب .

ومن النماذج التي يمكن ان نستشهد بها على نقد المتلقي للشعر الجاهلي ما أورده المرزباني بسنده قائلا : ((تحاكم الزبرقان بن بدر ، وعمرو بن الأهتم ، وعبيدة بن الطيب ، والمخبل السعدي إلى ربيعة بن حذار الأسدي في الشعر ، أيهم أشعر؟ فقال للزبرقان : أما أنت فشعرك كلحم أسخن ، لا هو أنضج فأكل ولا ترك نيئا فينتفع به ، وأما أنت ياعمرو ، فإن شعرك كبرود حبر ، يتلأأ فيها البصر ، فكلما أعيد فيها النظر نقص البصر . وأما أنت يا مخبل فإن شعرك قصر عن شعرهم ، وارتفع عن شعر غيرهم ، وأما أنت يا عبيدة فإن شعرك كمزادة ، أحكم خرزها فليس تقطروا ولا تمطر))^(٢٥).

وهذا حكم بني على تشبيهات مادية تماثل ما يعرفه المتلقي في بيئته ، وخلصتها أن شعر الزبرقان كلام في صورة الشعر لم يبلغ درجة النضج ، فهو فاقد للجزالة وحرارة العاطفة، الأمر الذي جعله في نظر المتلقي شعرا فاسدا . أما شعر عمرو بن الأهتم فهو من باب ما حسن لفظه وساء معناه ، ذلك أن من يسمعه ينمهر به لأول وهلة بسبب ألفاظه البراقة وأساليبه الخلافة ، ولكن حين يستكنه معانيه لا يجد شيئا .

أما ثالثهم فشعره متوسط الجودة لا يرقى به إلى مرتبة الفحول من الشعراء وان كان أعلى من مرتبة مدعي الشعر. وأشعر الأربعة هو عبدة بن الطبيب لجزالة فيه وقوة سبك، لا يرى فيه الناظر ضعفاً، لأن فيه قوة في الأسلوب وفي المعنى، لذلك هو أشعر الأربعة. نقرأ في هذه الأحكام أنها أوصاف عامة، تبتعد عن التفصيل، وعن الوضوح، وعن الدقة، وعن الدليل، ولكنها تنم عن ذوق يحاول التمييز بين الجيد والردئ، وتدل على محاولة تقويم الشعر تقويماً يعتمد على الانطباع العام، والبادرة السريعة والخاطرة الفجة التي يملها الذوق المنتمي إلى بيئة تعيش القطرة، وتغيب عنها الدقة، وتفترق إلى التعليل المريح، ولا تعرف من المعايير النقدية شيئاً إلا الذوق الذي يحس الجمال دون أن يعرف سببه.

ولعل قصة احتكام الشاعرين امرئ القيس وعلقمة الفحل إلى أم جندب زوج امرئ القيس، من النماذج التي ينظر فيها الناقد الجاهلي إلى جودة الشعر فقط دون النظر إلى أمور أخرى خارجة عن مجاله.

تقول الرواية أن الشاعرين احتكما إليها أيهما أشعر؟ فاقترحت عليهما أن ينشد كل منهما قصيدة في موضوع واحد ومن بحر واحد، وقافية متحدة، فلما أنشدها القصيدتين، قالت لزوجها: علقمة أشعر منك، قال كيف؟ قالت: لأنك قلت:

فلسوط الهوب وللساق درة وللزجر منه وقع أخرج مهذب
وجهدت فرسك بسوطك في زجرك، ومريته فأتعبته بساقك، وقال علقمة:

فأدركن ثانيا من عنانه يمرّ كمرّ الرائح المتحلب

فأدرك فرسه ثانيا من عنانه، لم يضربه ولم يتعبه^(٢٦).

ندرك من هذا الحكم أن أمّ جندب نظرت إلى الصور المثلى للفرس، وما ينبغي أن يكون له من قوة وسرعة فجعلته المقياس الذي تحكم به للشاعر أو عليه، فهي تريد من الشاعر أن يصور الكمال الواقع في الحياة لا الحال الواقع فعلاً؛ فليس المطلوب من الشاعر في نظرها أن يكون صادقاً في تصويره واقعياً في نظره وإنما ينبغي أن ينظر إلى المثل الأعلى، وهذا المثل يتحقق في نظر أمّ جندب عندما يكون فرس امرئ القيس أصلب

عودا ، وأجمل منظرا ، وأكثر سرعة ، وأشد احتمالا ، من دون أن يلهبه صاحبه بسوط ، أو يسرجه بساق ، أو يزجره بصوت .

لقد اعتمدت هذه المرأة في حكمها على سليقتها الحساسة ، وربطها بين الشاعر وبيئته وما يكون فيها ومعايشتها الفاهمة لطبائع الفرس ، ومدى استجابته للفارس ، ومعرفتها نوعية الفرس الجيدة من الرديئة ، وما يليق بكل منها وما بسنجيب له .

ومما يؤخذ على مثل هذا النقد أنه أخذ شكل البدايات والمطالع والنظرة الجزئية ، وهي أمور واكبت التيار النقدي الذي ساد في العصر الجاهلي ، ولم تكن دقيقة ، أنها نظرت إلى جزئية واحدة وهي الصفة المثالية ، ولأنها تغاضت عن أن يكون العيب في فرس أمرئ القيس لا في الشاعر أو في مقدرته على الوصف الشعري .

ومن نماذج نقد الجمهور للشاعر كما روي عن النابغة الذبياني حين قدم المدينة فأسمعه شعرا له فيه اقواء من خلال غناء جارية ، فلما قالت :

زعم البوارح أن رحلتنا غدا وبذاك خبرنا الغراب الأسود

وكانت في غنائها تلح على كلمة (الأسود) ، فعلم النابغة ذلك ولم يعد إليه ، وقال :
قدمت الحجاز وفي شعري صنعة ورحلت عنها وأنا أشعر الناس^(٢٧) .

وكان النابغة قبل ذلك لا يأبه لهذا العيب في شعره ، وهو عيب لم تستسغه الأذواق العربية في الجاهلية التي اعتادت على هذه الرتبة في وحدة الإيقاع ووحدة النغم ، لذلك عندما سمعت النشاز الموسيقي (الإقواء) نفرت منه وعدته عيبا في الشعر .

إن طبيعة الأحكام النقدية التي وردت في ما ذكرناه من نماذج ، قد اتسمت بالذوق الفطري ، فكانت لمحات ذوقية ، ونظرات شخصية تقوم على ما تلهمهم به طبائعهم الأدبية ، وسليقتهم العربية ، وأذواقهم الشاعرة ، وحسهم اللغوي الدقيق باللغة العربية ، وإحاطتهم بأسرارها ، ووقوفهم على ما للألفاظ من دلالات وإيحاءات في شتى صورها .

وقد ترتب على هذا التذوق الفطري أن كان متذوق الشعر يصدر حكمه ارتجالا ، في أغلب الأحيان ، دون أن تكون هنالك دراسة موضوعية لنواحي الجودة أو الرداءة ، وبعيدا عن الدراسة التفصيلية والتحليلية للقصيدة . فكانوا يتناولون جزئيات من

الجوانب الفنية للقصيدة ، كجانب الألفاظ أو جانب المعاني ، أو جانب الوزن مثلا . لذلك كانوا يطلقون أحكاما عامة ، ويرسلون الآراء دون ذكر الأسباب الموجبة لها ، لذلك جاءت أحكامهم بشكل موجز ، وفي بعض الأوقات بعبارة واحدة ، يفهم منها ما يراد ، ولكن دون شرح أو تفصيل ، ولعل عبارة طرفة (استنوق الجمل) خير مثال على ذلك .

مما تقدم ، يمكن القول أن الناقد (الجاهلي كان يتعرض أما للشعر أو للشاعر ، فهما الميدانان اللذان جال فيهما النقد جولات خفيفة في العصر الجاهلي من خلال الحكم على الشعر ، أو التنويه لمكانة الشعراء ، أما غير ذلك من البحث في طريقة الشاعر ، أو مذهبه الأدبي ، أو صلة الشعر بالحياة الاجتماعية ، فذلك ما لم ينظره النقد في العصر الجاهلي .

الهوامش

- ١- ينظر: البيان والتبيين ، الجاحظ ، ٩/٢ .
- ٢- ينظر: النقد الأدبي عند العرب واليونان - معالمة وأعلامه - ، قصبي الحسين ، المؤسسة الحديثة للكتاب ، لبنان ، ٢٠٠٣ م ، ١٨ .
- ٣- ينظر: دراسات نقدية وبلاغية - جدل التراث والمعاصرة - ناصر حلاوي ، ط١ ، دار ومكتبة البصائر ، بيروت ، ٢٠١٣ م ، ٨١ .
- ٤- ينظر: مقدمة في النقد الأدبي ، علي جواد الطاهر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٩ م ، ٣٥١ .
- ٥- ينظر: النقد الأدبي ، أحمد أمين ، القاهرة ، ١٩٦٣ م ، ٤١٨ ، تاريخ النقد العربي ، محمد زغلول سلام ، القاهرة ، ١٩٦٤ م ، ٧٤/١ .
- ٦- البيان والتبيين ، الجاحظ ، ٩/٢ .
- ٧- ينظر: معجم النقد العربي القديم ، أحمد مطلوب ، ٣٩٨ .
- ٨- ينظر: العمدة ، ابن رشيق ، ٢٠٠ /١ .
- ٩- ينظر: الصنعة الفنية في التراث النقدي ، حسن البنداري ، ط١ ، مركز الحضارة العربية ، القاهرة ، ٢٠٠٠ م ، ٤٦ .
- ١٠- الشعراء ونقد الشعر ، هند حسين طه ، ط١ ، مطبعة الجامعة ، بغداد ، ١٩٨٦ م ، ١٣ .
- ١١- الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء ، المرزباني ، جمعية نشر الكتب العربية ، القاهرة ، ١٣٤٣ هـ ، ٦ .
- ١٢- الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٦ م ، ٣٠٢/١ .
- ١٣- أطلمة : مفرد أطم وهو القصر أو كل حصن مبني بحجارة ، وكل بيت مربع مسطح ، ينظر: القاموس المحيط ، الفيروز آبادي ، ٧٥ .
- ١٤- ينظر: الأغاني ، أبو الفرج الأصبهاني ، ٢٢ / ١٢١-١٢٢ .
- ١٥- المصدر السابق ، ١٢/٥ .
- ١٦- العمدة : ٧٧/١ .

- ١٧- الموشح ، ٩٣ .
 ١٨- البيان والتبيين ، ٢٤١/١ .
 ١٩- طبقات فحول الشعراء ، ابن سلام الجمحي ، ١٣٦ .
 ٢٠- تأويل مشكل القرآن ، ابن قتيبة ، ٧٨ .
 ٢١- العمدة ، ٦٥/١ .
 ٢٢- العمدة ، ١١٧/١ .
 ٢٣- النقد ، شوقي ضيف ، ط ٥ ، دارالمعارف ، مصر ، ٢١ .
 ٢٤- الموشح ، ٦١ .
 ٢٥- المصدر السابق ، ٩١ .
 ٢٦- نفسه ، ٢٤ ، وينظر: الشعر والشعراء ، ٢٢٠/١ .
 ٢٧- ينظر: الشعر والشعراء ، ١٠١/١ ، والموشح ، ٦٧ - ٦٨ .

المصادر والمراجع

- ١- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، تحقيق، سمير جابر، ط ١، دارالفكر، بيروت.
 ٢- البيان والتبيين ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق وشرح ، عبد السلام محمد هارون ، ط ٥ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٤٠٥هـ-١٩٨٥ م .
 ٣- تأويل مشكل القرآن ، ابن قتيبة ، تحقيق : ابراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (د . ت) .
 ٤- دراسات نقدية وبلاغية - جدل التراث والمعاصرة - ناصر حلاوي ، ط ١ ، دارومكتبة البصائر، بيروت، ٢٠١٣ م .
 ٥- الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، دارالمعارف ، مصر ، ١٩٦٦ م .
 ٦- الشعراء ونقد الشعر، هند حسين طه ، ط ١ ، مطبعة الجامعة ، بغداد ، ١٩٨٦ م .
 ٧- الصنعة الفنية في التراث النقدي ، حسن البنداري ، ط ١ ، مركز الحضارة العربية ، القاهرة ، ٢٠٠٠ م .

- ٨- طبقات فحول الشعراء ، ابن سلام الجمحي ، قرأه وشرحه : محمود محمد شاكر ، مطبعة المدتي ، القاهرة ، (د.ت).
- ٩- العمدة في محاسن الشعر وأدابه ، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي ، تحقيق ، محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط ٤ ، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة ، بيروت . لبنان ١٩٧٢ م .
- ١٠- القاموس المحيط ، الفيروز آبادي ، تحقيق : مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ، بإشراف : محمد نعيم العرقسوسي ، ط ٨ ، مؤسسة الرسالة للطبع والنشر والتوزيع ، بيروت ، ٢٠٠٥ م .
- ١١- معجم النقد العربي القديم ، أحمد مطلوب ، دار الشؤون الثقافية العامة ، وزارى الثقافة والاعلام العراقية ، بغداد ، ١٩٨٩ م .
- ١٢- مقدمة في النقد الأدبي ، علي جواد الطاهر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٩ م .
- ١٣- الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء ، المرزباني ، جمعية نشر الكتب العربية ، القاهرة ، ١٣٤٣ هـ .
- ١٤- النقد ، شوقي ضيف ، ط ٥ ، دار المعارف ، مصر ، (د . ت) .
- ١٥- النقد الأدبي عند العرب واليونان - معالمه وأعلامه - ، قصي الحسين ، المؤسسة الحديثة للكتاب ، لبنان ، ٢٠٠٣ م .
- ١٦- النقد الأدبي ، أحمد أمين ، القاهرة ، ١٩٦٣ م ، ٤١٨ ، تاريخ النقد العربي ، محمد زغلول سلام ، القاهرة ، ١٩٦٤ م .